

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنا!

الحمد لله الذي خلق الإنسان، ووهبه العقل والإرادة، وجعل هذه الحياة ميداناً للعمل والابتلاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

متى تقول: أنا

قل: أنا، ولا تقل: أعوذ بالله من كلمة أنا؛ ف«أنا» ليست مذمومة في ذاتها، وإنما يذم ما وراءها من كبر وعجب واستعلاء. أما «أنا» التي تحمل صاحبها على تحمل المسؤولية، وتدفعه إلى المبادرة والنفع، فنعم الأنا.

وقد قالها سيد المتواضعين **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في ساعة من أشد ساعات القتال. ففي يوم حنين، لما اشتد القتال وانكشف بعض المسلمين، ثبت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وتقدم نحو العدو وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن

عبد المطلب»^(١). لم يتراجع **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، بل تقدم وثبت وأعلن للعدو مكانه؛ كأنه يقول: ها أنا ذا، إليّ، وأنا أمامكم.

وهكذا تكون «أنا» المحمودّة: حين يتأخر الناس عن واجب وأنت قادر عليه، وحين يكون معنى «أنا»: أنا أبدأ، وأنا أتحمّل، وأنا في المقدّمة. فكم من مصلحة تعطلت لأن كل واحد قال: غيري.

وكان **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مبادراً إلى نفع الناس حتى قبل أن يطلبوا منه؛ فلما مات عمه أبو طالب قال **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من تلقاء نفسه: «**أَسْتَغْفِرُ لَكَ مَا لَمْ أَهْ عَنْكَ**»، فلم ينتظر طلباً، بل بادر بالاستغفار له، حتى أنزل الله النهي عن الاستغفار للمشرّكين. وقال **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في شفاعته لعمه وتخفيف العذاب عنه: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»^(٢).

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

فليست المشكلة في أن تقول: «أنا»، وإنما السؤال:
أنا لماذا؟ أنا لأظهر وأتعالى؟ أم أنا لأتحمل وأخدم وأنفع
وأبادر؟ هذه «أنا» التي نحتاج إليها.

المبادرة خلق قرآني

وهذا خلق قرآني عظيم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ
مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آل عمران: ١٣٣، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَاتِ﴾ البقرة: ١٤٨ وقال في وصف أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ
كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ الأنبياء: ٩٠

ومن أجمل صور ذلك ما وقع حين جاء رجل إلى
رسول الله ﷺ وقد أصابه الجهد والجوع، فأرسل
النبي ﷺ إلى بيوته فلم يجدوا له طعامًا، فقال
لأصحابه: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟». فقام رجل من
الأنصار وقال: أنا يا رسول الله. أخذه إلى بيته، فإذا الطعام
قليل لا يكفي إلا صبيانه، فنوَّما صبيانهما، وقدا الطعام
للضيف، وأطفأ السراج، وجعلا يوهمانه أنهما يأكلان معه
حتى شبع، وباتا هما جائعين. فلما أصبح قال له رسول

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا
اللَّيْلَةَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ﴾^(١).

وانظروا إلى عثمان رضي الله عنه، كيف كانت حياته
مبادرات تتجدد كلما تجددت حاجة المسلمين؛ وكان
المسلمون بحاجة إلى الماء، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من
يشترى بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له
منها في الجنة؟» فاشتراها عثمان من ماله. ثم ضاق
المسجد بأهله، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من يشتري بقعة
آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة؟»
فاشتراها عثمان من ماله. ثم جاءت غزوة تبوك واشتدت
حاجة المسلمين إلى تجهيز الجيش، فجهز عثمان جيش
العسرة، وجاء بألف دينار فشرها في حجر النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقلبها ويقول: «ما

(١) متفق عليه.

ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»^(١).

هكذا يعيش صاحب المبادرة؛ كلما ظهرت حاجة لم يكن أول سؤاله: من المسؤول عنها؟ وإنما: ماذا أستطيع أن أقدم؟

وما أحوجنا إلى هذه الروح في بيوتنا وأعمالنا ومجتمعنا؛ أن يبادر الابن إلى حاجة والديه قبل أن يطلبها، وأن يرى الإنسان خللاً في عمله فيسعى إلى إصلاحه، وأن يعرف محتاجاً متعففاً فيصل إليه قبل أن يسأل.

المبادرة ليست اندفاعاً

وإذا كنا ندعو إلى المبادرة، فإن من المهم أن نعلم أن المبادرة ليست تهوراً ولا اندفاعاً، وأن حسن النية وحده لا يكفي إذا كان العمل يعرض الإنسان أو غيره لخطر

(١) قصة بئر رومة وجيش العسرة: أخرجهما البخاري، وقصة توسعة المسجد والألف دينار: رواهما الترمذي وحسنهما.

أعظم. فالمبادرة المحمودة معها عقل وحكمة ونظر في العواقب.

وفي يوم أحد أخذ رسول الله ﷺ سيفاً فقال: «**من يأخذ مني هذا؟**» فبسط الصحابة أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، فقال: «**فمن يأخذه بحقه؟**» فأحجم القوم، فقال أبو دجانة رضي الله عنه: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق به هام المشركين ^(١).

تأملوا: لما كان السؤال: «من يأخذ مني هذا؟» قالوا: أنا، أنا، فلما قال: «**فمن يأخذه بحقه؟**» أحجموا، وهنا تقدم أبو دجانة وقال: «أنا آخذه بحقه». فالمبادرة ليست مجرد حماسة إلى العمل، وإنما أن تعرف حقه وتبعاته، ثم تقول: أنا لها.

حدثني أحد القضاة أن رجلين كان بينهما شجار، فجاء رجل يريد الإصلاح بينهما، وكان مع أحد

(١) رواه مسلم.

المتشاجرين سكين، فالتفت الرجل الذي يحمل السكين من غير قصد، فأصابته السكين في قلبه فمات. أراد خيرًا، لكن المبادرة لا تعني الاندفاع في موطن الخطر؛ فحين تكون النفوس ثائرة والسلاح حاضرًا، لا بد أن تكون المبادرة محسوبة، فليس من الحكمة أن تعالج خطرًا فتعرض نفسك لخطر أكبر.

ومثل ذلك أن يرى الإنسان إطارًا أو جسمًا في وسط طريق سريع تعج به السيارات، فيبادر إلى النزول لإزالته، فيعرض نفسه للدهس وهو يريد إزالة الأذى عن الناس. نعم، إزالة الأذى عن الطريق صدقة، ولكن المبادرة لا تعني أن تزيل خطرًا عن غيرك فتعرض نفسك لخطر أكبر؛ بل تنبه المركبات بما تستطيع من وسيلة آمنة، وتبادر بإبلاغ الجهات المختصة لتزيله بأمان.

وهكذا في سائر شؤون الحياة؛ قد يبادر الإنسان إلى إسعاف مصاب بطريقة لا يعرفها فيزيد إصابته، أو ينشر تحذيرًا في هاتفه يريد نفع الناس قبل أن يتثبت منه فينشر

إشاعة، أو يدخل في خصومة يريد الإصلاح فيزيدها
اشتعالاً.

قل: أنا لها

فقل: «أنا» حين يكون في قولها خير ونفع ومسؤولية،
ولكن قلها بعلم وحكمة وبصيرة؛ فلا تكن متفرجاً ينتظر
غيره، ولا مندفعاً يضر نفسه وهو يريد النفع. وكن ممن
إذا فُتح باب الخير قال: أنا لها، ثم استعان بالله وأحسن
العمل؛ ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ البقرة: ١٤٨

وُلِّبَ فِي ٢٢ / ٣ / ١٤٤٨ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد